العنوان و سياق التاريخ
في رواية "حوبه و رحلة البحث عن المهدي المنتظر"
لعز الدين جلاوجي(مقاربة بنيوية تكوينية)

أ/ريمة كعبش أستاذة مساعدة(أ)

جامعة منتوري بقسنطينة1

ملخص المقال:

يشتغل هذا المقال على العنوان الرئيسي لرواية "حوبه و رحلة البحث عن المهدي المنتظر"، بغية التوصل إلى الدلالات العميقة التي يدثّرها في داخله، و المقال إذ يمضي في سعيه الحثيث و المتواضع هذا، إنما يفسر من منطلق الدين و التراث(نظرا إلى أن العنوان يحمل بين أعطافه هذين المرجعين المهمّين) من أجل تحديد علاقته الوطيدة بالتاريخ على اعتبار أن الرواية ككل(محل الدراسة) عمل تاريخي بالدرجة الأولى.

و الدراسة إذ ذاك تتبع خطوات المنهج البنيوي التكويني لرائده الكبير" لوسيان غولدمان"(Lucien Goldman)، و الذي دعا إلى ضرورة تناول العمل الأدبي الروائي برمته(بكل عناصره: من العنوان إلى المتن الحكائي) من حيث صلته بالواقع، و المجتمع، و السياسة، و التاريخ...

Abstract :

This article works on main title of the novel « HOUBA AND A TRIP SEARCH ABOUT THE EXPECTED MAHDI », in order to reach at a deep significances that hidden inside him. And when the article goes in his attempt intense and humble, it explains in the basis of religion and heritage (considering that the title holds between wings these two important references), in order to determine the close relationship with history, on the grounds

that the novel as a whole (in the study) historical work primarily.

The study then follow the steps of the structural formative process to the great pioneer « LUCIEN GOLDMAN », who called to the necessity of dealing a literary work completely (all the elements: from the title to the board of story) as it relates to reality, and society, and politics, and history...

تمهيد

يعتبر العنوان أول عتبة نصية يقف عندها القارئ قبل الولوج إلى فضاء الرواية العام، " و ما دام العنوان عتبة من عتبات النص فهو ممتلك لبنية و لدلالة لا تنفصل عن خصوصية العمل الأدبي"[1]، لذلك وجب الوقوف عند هذه العتبة و التدبر فيها من أجل استكناه دلالاتها الأصيلة قبل اقتحام عوالم الرواية، و ذلك مثلما نقف عند عتبة أي باب قبل الدخول إلى عوالم البيت، فالعتبة كما يقول" سعيد يقطين": " فضاء(...) و ما أصعب اقتحام أي فضاء دون اجتياز العتبة."[2]

إن العنوان:" حوبه و رحلة البحث عن المهدي المنتظر" يملي علينا النظر فيه و تحليله بما يتوافق مع معطيات الدراسة أي من حيث علاقته بالتاريخ، إذ نرى أنه" لا يفصل بين هذه المعطيات و إنما يؤسس لوحدة عامة يجمع فيها بين كل من الإحالة و الشعرية و منظور القراءة."[3]

وظائف العنوان

كل عنوان ينجز ثلاثة وظائف لا مناص له منها هي كالآتي[4]:

1. الوظيفة التعيينية/التسموية
2. الوظيفة الإغرائية أو التحريضية.
3. الوظيفة الإيديولوجية.

المتأمل في عنوان رواية "حوبه و رحلة البحث عن المهدي المنتظر"❖ يرى بأن كل الوظائف المذكورة أعلاه قد اجتمعت فيه، فإذا كانت الوظيفة الأولى تعني تعيين نوع النص و تحديد مضمونه فإن أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ أن نوع النص هنا ديني، و هذا بالنظر إلى عبارة " المهدي المنتظر" بالذات، فالقارئ من البداية يهيء نفسه لقراءة عمل فني ذا صلة بالدين، و سير ذاتي كذلك ذا صلة بامرأة اسمها "حوبه" يبدو أنها ستحكي قصتها مع " المهدي المنتظر"، أو بالأحرى قصة بحثها عنه.

بالانتقال إلى الوظيفة الثانية التي يؤديها عنوان هذا النص الروائي و هي الوظيفة الإغرائية، فإنه ينبغي التنويه إلى أن هذه الأخيرة " تعد من الوظائف المهمة للعنوان لتنشيطها تلقيات القارئ و تحريكها فضول القراءة فيه "[5]، و دفعه إلى المساءلة: من هي حوبه؟ و ماعلاقتها بالمهدي المنتظر؟ و لماذا تبحث عنه؟

قبل الاطلاع على مضمون الرواية يخيّل للقارئ أن الكاتب سيجسّد "حوبه" كشخصية روائية في المجتمع الروائي، و تسهم في تطور الأحداث، و من ثم سيجسّد " المهدي المنتظر" كشخصية روائية أيضا، كما فعل الكثير من الروائيين العرب، لكن يخيب أفق توقع القارئ بعد القراءة الأولى للنص، إذ لا يجد كل ما خيّل له في البداية، لأنه لم يتم التحدث - على الإطلاق- عنهما على متن الحكاية، و إنما ورد ذكرهما على متن العنوان و الافتتاحية فحسب.

و إن كان هذا الفعل من الكاتب، يؤدي بالقارئ إلى الاعتقاد بأنه لا توجد علاقة دلالية/تداولية بين العنوان و مضمون النص، فإنه يؤدي به كذلك إلى التفطن لقصدية هذا الفعل، إذ يتضح له بأن الكاتب لم يجعل عنوان روايته يلعب دورا إغرائيا تداوليا فحسب، بل جعله يلعب دورا مراوغا أيضا، لأنه " لا يحكي النص بل على العكس إنما يمظهر و يعلن نية (قصدية) النص، و لهذا الإعلان أهمية خاصة في تشكيل مظاهر التناسق الحكائي المعين لخصوصية و أشكال صوغ الكتابة و عوالمها الممكنة، و لذلك كان وضع العنوان (يعني

من بين ما يعنيه) فرض النص كقيمة و كمعنى آت، لن يتم تمثل قضاياه و ظواهره إلا في تعالقها و حواريتها مع الخصوصية النصية."[6]

انطلاقا من هذا المفهوم، فإن تفسير مغزى هذا العنوان المثير، و المغلّف بالغموض و الالتباس، و الذي لا يطابق المضمون العام للنص، يقتضي فهما لمنطق الحكاية و حفرا في طبقاتها، لأنه لن يتم التوصل إلى دلالة للعنوان إلا في ربطها بالسياق الحكائي العام المؤطر لنص الرواية، و هذا ما قمنا به عند مقاربة العنوان في وظيفته الإيديولوجية، فالكاتب من خلال إدراجه لعبارة " المهدي المنتظر" يبدو و كأنه يعبر عن إيمانه به(بإمكانية عودته يوما ما إلى الحياة الدنيا)، يؤكد هذا الاعتقاد(لدى القارئ) كلمة "البحث" التي تتوسط العنوان، و تدل على وجود الشيء إلا أنه لم يتم العثور عليه بعد.

لكن القارئ لا يبقى ثابتا عند هذا الاعتقاد الذي تشكل له من القراءة الأولى للعنوان، إذ يصبح تجاوز عتبة هذا الأخير و الاطلاع على مضمون الرواية هو وحده الكفيل بإثبات الاعتقاد الذي قلناه أو دحضه كلية.

تفسير العنوان من منطلق الدين و التراث

يرى " لوسيان غولدمان"(Lucien Goldman) أن تحليل أي نص يقتضي اتباع عمليتين أساسيتين هما: الفهم و التفسير، إذ ينبغي قراءة النص و فهمه جيدا، ثم تفسيره من حيث علاقته بالمجتمع(الجماعة البشرية بتعبيره)، و الواقع السياسي و التاريخي لذلك المجتمع[7]، و لأن العنوان كما سبق و أن أشرنا لرؤية الباحث المغربي له "سعيد يقطين" على أنه فضاء، أو فضاء نصي، أو نص بحد ذاته، فإنه يستتبع هو الآخر فهما و تفسيرا للقبض على دلالاته الخفية، و التي لا تنفصل عن دلالات النص الكلي بحد ذاتها.

و كخطوة أولى لتشريح العنوان: "حوبه و رحلة البحث عن المهدي المنتظر" يصطدم القارئ بكلمة "حوبه"، هذه الكلمة التي تبدو له من الوهلة الأولى غريبة و مبهمة، لتتكشف ماهيتها- من خلال الافتتاحية- على أنها امرأة تربطها بالكاتب علاقة مبهمة أيضا، لا نستطيع تحديدها بدقة. هل هي علاقة

صداقة؟ أم قرابة؟ أم حب و غرام؟ أم عمل و زمالة؟، فمرة يخبرنا أنه التقى بها في مركب قرب البحر احتجزاه و أقاما به بضعة أيام " جلسنا على كرسيين متقابلين في شرفة تغطيها الأشجار، و تطل على بحر هادئ مسكون بالسحر، كان الوقت صباحا نسماته منعشة رغم الشمس التي تربعت عروسة في كبد السماء كأنما تستمتع للحكاية أيضا، عصافير تلهو قريبا منا تقفز على أغصان مطرزة بالاخضرار، حمامة تهدل غير بعيد منا، موسيقى خافتة كانت تنساب من المركب الذي أقمنا فيه منذ أيام..."[8] ، و مرة يقول بأنه التقى بها في مكتبه في الجامعة و تناقشا في بعض أمور الكتابة و تأليف حكاية الرواية " زارتني حوبه في مكتبي هذا الصباح، مشرقة كما العادة، وجهها كقمر دري يوقد فوانيس قلبي..."[9]، و مرة أخرى يذكر بأنها أتته للبيت ليذهبا في رحلة لاستكشاف بعض المناطق و الأماكن التي احتوتها الرواية " تناهى إلى سمعي بوق سيارة ارتجف له قلبي شوقا، راحت تلوح بيدها تدعوني للنزول، رجوتها أن تصعد إلى البيت فأنا متعب مرهق و مازلت في حاجة إلى الراحة، ألحت علي في الإسراع بالنزول(...)كنت قد أكملت إعداد نفسي، تأملتني بابتسامة و قالت:

- أنت أحلى حبيب

قلت مداعبا:

- وراء كل جميل امرأة جميلة

و رحت عبر الزجاج أعانق التضاريس الجميلة من حولي، معيدا إلى ذاكرتي كل مغامراتي مع حوبه، كل ربوة، كل جبل، كل متنزه، كل غابة، كل بساط أخضر، شاهد على حبنا، على إخلاص كل منا لصاحبه، هل سأكتب يوما ما قصة حبنا أيضا، كما أكتب الآن قصة العربي الموستاش و حمامه؟."[10]

إن الكاتب و هو يحدثنا عن "حوبه"، و ينقل لنا الحوارات التي دارت بينه و بينها، يبدو و كأنه يحاول الإيحاء بأنها حبيبته الوحيدة، و أنه مغرم بها

غراما شديدا، فمثلا يقول في هذا الحوار: " وضعت السكرتيرة فنجاني القهوة و انصرفت، رشفت رشفتين متتاليتين ساخنتين منعشتين.

حملت حوبه فنجانها بأصابعها النحيفة و قالت قبل أن ترشف منها:

- أصبحت تدمن القهوة.
- كما أدمن حبك حوبتي.

ضحكت و رحت أحدق في عينيها الكحلاوين."[11]

و كثيرا ما يعبّر للقارئ عن حبه لها بقوله:"ما أحلى أن أجلس إلى حوبه حبيبتي الساعات و الأيام و السنوات لأسمع منها حكايتها، لتتضوع علي عبقا و سنا."[12]

كل قارئ لهذه المقاطع السردية يرى أن الكاتب تربطه علاقة حب كبيرة بـ"حوبه"، إذ يتعامل معها تعامل العاشق لمعشوقته، كلامه معها و نظراته إليها تظهر إعجابه بها، و حبه الشديد لها.

دواعي اختيار المرأة/حوبه كسارد

كثيرا ما يمارس الكاتب "التمويه" حيال شخصية "حوبه"، و يحاول أن يجعلها "شخصية هلامية"[13] غير واضحة المعالم، إذ لم يحدد عمرها، و لا ملامحها بدقة متناهية، و اكتفى فقط بوصف لون عينيها(الأسود الذي يرمز إلى المرأة الجزائرية و العربية عامة)، و بعض أجزاء جسدها النحيلة و النحيفة. يقول بشاعرية جميلة: "و حوبه حين تحكي تكون كالعين النضاحة، تنبجس الحكاية من كل جوارحها و جوانبها، فهي تشبه عيون مياهنا، و حقول قمحنا، و طيور الكروان الحالمة في ليالي صيفنا، عيناها الكحلاوان الواسعتان تتوسد شواطئها النوارس الحالمة، و تقهقه على رملها الناعم أمواج حوريات البحر، و حين تبسم حوبه تشرق شمس من درر لماعة حتى لتخال نفسك قد عثرت على كنز من كنوز السندباد، و أنفاس حوبه نسيم ربيعي يحمل إليك

شذا الهضبات و عبق التلال."[14] ، و لعل الكاتب كان متعمدا في هذا(في عدم إعطاء الكثير من الأوصاف الدالة).

كما نلاحظ أن الكاتب يحاول أن يجعل "حوبه" تتماهى مع شخصية "حمامه" التي احتضنتها الحكاية، إذ تحمل نفس ملامحها، حتى أن الكاتب يشك بأن "حوبه" هي "حمامه" بالذات(و كأنه يريد لفت انتباه القارئ إلى هذا التشابه). يقول:" حوبه، هل هي فرع من حمامه؟ لست أدري لماذا كنت أراها كذلك؟ و لست أدري لماذا كلما ذكرت حمامه تبدت لي ملامح حوبه؟"[15]

في كل مرة كانت تلتقي فيها "حوبه" بالكاتب، كانت تحكي له جزءا من قصة الرواية، يتضح أنه جزء من تاريخ حياتها/ أو حياة "حمامه"، " لقد قررت أخيرا أن تحكي قصتها لي لم تشأ أن تبدأ مذ ولدت هي تقول دائما أنا أعمق من ذلك بكثير أنا تاريخ ممتد الجذور في الماضي، الماضي السحيق" [16] ، ليضطلع هو بدور تدوينها و كتابتها فنيا، مبيّنا بذلك أن"حوبه" هي الراوي الأول لقصة الرواية، و أنه هو الراوي الثاني لها، هذا ما تفصح عنه سطور افتتاحية الرواية.

و لإضفاء بعد جمالي على الرواية ككل، استخدم الكاتب شخصية "حوبه" استخداما فنيا جميلا، مستلهما الشكل الفني لحكايات ألف ليلة و ليلة(التي تمثل الموروث السردي القديم) و التي يبدو أنه متأثر بها إلى حد كبير. يقول: " و انهمرت تحكي. كما حكت شهرزاد في سالف العصر و الأوان مستفتحة بقولها: بلغني أيها الحبيب السعيد ذو العقل الرشيد أنه..."[17]

هكذا تم جعل "حوبه" كشهرزاد في سردها لقصة الرواية، شهرزاد التي كانت ذكية، فأسرت قلب "شهريار" بحكاياتها تلك، " حوبه هي شهرزادي التي ظلت مدى السنوات الطوال تزرع نفسي القاحلة بحكاياتها الجميلة فتحيل صحرائي إلى جنتين من أحلام و أمال"[18].

إن تنازل الكاتب/الرجل عن عرش الحكي للمرأة/حوبه راجع إلى كونها أكثر إتقانا لفن الحكي بالإضافة إلى إكسابها الحكي متعة أكثر من الرجل.(و هذا ما أقر به الكاتب"عز الدين جلاوجي" نفسه خلال الحوار الذي أجريته معه).❖

لغة الرواية و جمالية الأسلوب

يجب الاعتراف بأن الكاتب بتوظيفه لتقنية الراوي امرأة قد خلق متعة في ثنايا النص المكتوب، ثم إن اللغة الشاعرية الجميلة التي كتب بها أجّجت ذلك الإحساس بالمتعة، و أسرت القارئ، و جعلته يسترسل في القراءة، و ينساب في معانيها الثرية متناسيا طول الرواية و حجمها الكبير❖.

و الكاتب لم ينس نفسه، بل اعتد و افتخر بما أنجزه و ذلك خلال حديثه مع "حوبه" عن الرواية التي هو بصدد كتابتها :" حملت حوبه فنجانها بأصابعها النحيفة و قالت قبل أن ترشف منها : - أصبحت تدمن القهوة.

قلت بصوت خافت:

- كما أدمن حبك حوبتي.

ضحكت و رحت أحدق في عينيها الكحلاوين، قالت:

لقد أكملت قراءة ما كتبت، و لاحظت أن أسلوبك قد ألبس الحوادث عبقرية.

قلت سعيدا باعترافها: روايتك للحكاية إبداع و كتابتي لروايتك إبداع ثان، و لا معنى لرواية هزيلة اللغة و الأسلوب "[19].

بالفعل برع الكاتب في إنجازه لهذه الرواية شكلا و مضمونا و حقّ له أن يفتخر بما أنجزه.

و لغة هذه الرواية تحاول إقناع القارئ بأن ما يحكى له حقيقة لا خيال، و أن "حوبه" شخص حقيقي له وجود فعلي في الواقع الخارجي، و أنه مقبل على قراءة أحداث حقيقية خاصة بها، و لكن القارئ يدرك هذه اللعبة الفنية❖، بأن "حوبه" ليست إلا شخصية خيالية ابتدعها الكاتب من خياله ليحقق بوساطتها غاية فنية سنكشفها في الصفحات الآتية. و لأنه كما يرى "رولان

بارت"(Roland Barthes) أن محاولة الكاتب إقناع القارئ بأن الراوي و الشخصيات أشخاصا حقيقيين "أحياء" مجرد خرافة أدبية ألفناها كثيرا حتى أصبحت قوة خالدة "[20]. فالرواية قبل كل شيء "عمل تخييلي في شخصياتها و ضميرها و زمنها و ما الإيهام بالواقعية أو المطابقة إلا حيلة أسلوبية أتقنها الكاتب بمهارة و حرفية كبيرين"[21].

و لأنه من الضروري البحث عن دلالة العنوان في ارتباطها بالسياق الحكائي العام و المؤطر لنص الرواية، فإن القارئ لم يغفل أبدا عن أمر توظيف هذه الرواية للتاريخ،(على الرغم من أن العنوان لا يبدي للقارئ حمله للتاريخ من القراءة الأولى) إذ تتضمن أحداثا تاريخية حقيقية وضعها الكاتب في قالب روائي ليسهل عليه إيصالها له.

دلالة الاسم الرمز "حوبه" و إحالته على التاريخ

يعد" اختيار الأسماء الخطوة الأولى في الترميز الشفري الناجح، فالاسم عليه أن يستدعي عالمين: المباشر و هو شخص الرواية الحقيقي، و المجازي و هو نظيره المختلف عنه و المتشابه معه في حكاية الوجود"[22]. هذا ما يحاول الكاتب القيام به من خلال اسم "حوبه"❖، هذا الاسم الذي يطرح إشكالا كبيرا على مستوى المعنى، فاختياره له بالذات لم يكن اعتباطا، فمما لاشك فيه أن لكل اسم معنى، فما معنى اسم "حوبه" يا ترى؟

اسم "حوبه" اسم غير مألوف و غير متداول بين الناس (في المجتمع الجزائري)، فلم نسمع بشخص يحمل هذا الاسم من ذي قبل، و إن كان يبدو أقرب إلى الأسماء التراثية القديمة في الجزائر، لكن أغلب الظن أنه من ابتداع الكاتب، و كمحاولة للبحث عن معناه، ارتأينا أن نستدل بآية قرآنية من سورة النساء تضمنت هذا الاسم و هي كالآتي:" وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً."[23]

إن معنى كلمة "حوبا" حسب سياق الآية تعني" ظلما "، و إذا أمكن لنا تقدير معنى اسم "حوبه" حسب هذا المصدر(حوبا) تغدو كلمة "حوبه" معناها "مظلومة ". هنا ينفتح الاسم على دلالة المرأة المظلومة، و ينفتح أيضا على دلالة أخرى و هي الوطن/الجزائر المظلومة بما أن الكاتب تناول بالحديث في روايته الجزائر في العهد الاستعماري و ما كابدته من ظلم و قهر و استعباد... فهو اسم رمز، و ما قام به الكاتب هو " أنسنة الرمز".

بعد أن طابق الكاتب بين" حوبه" و "حمامه"، فإننا نجد هذا التطابق ماثلا هنا من خلال التفسير الذي اقترحناه لاسم "حوبه"، فبالفعل كانت "حمامه" مظلومة من قبل زوجها " العربي الموستاش"، الذي خانها مع الفرنسية "سوزان"، و تزوج بها دون علمها، هذا الظلم هو الذي جعلها تحكي قصة حياتها معه بالموازاة مع قصة حياة الجزائر مع فرنسا في العهد الاستعماري(في الفترة الممتدة مابين العشرينيات إلى الخمسينيات)، هذا الأخير الذي يمثل ظلما آخر أشد قسوة و ضراوة.

و عندما نأتي إلى الغاية الفنية التي من أجلها وظف الكاتب شخصية "حوبه" المتخيلة، فإننا نجد بالاعتماد على التفسير الذي أدرجناه و الذي يفيد بأن "حوبه" هي الوطن، الجزائر، و ما تعبير الكاتب عن حبه لها إلا تعبير عن حبه للوطن. و هو عندما لم يحدد عمرها فإن هذا الأمر كان مقصودا منه، لأن عمر الجزائر مديد و غير محدود لذلك قال عنها: " لم تشأ أن تبدأ مذ ولدت هي تقول دائما أنا أعمق من ذلك بكثير أنا تاريخ ممتد الجذور في الماضي، الماضي السحيق"، و الكاتب كان متعمدا كذلك عندما لم يعطنا الكثير من الأوصاف و الملامح عن "حوبه" إلا ما بدر منه من وصف للون عينيها بأنه أسود للدلالة على أنها حمامه أولا، و أنها الجزائر العربية ثانيا.

على كل، يشهد القارئ للكاتب أنه أتقن فن تضمين الأسماء طاقة إيحائية رمزية، و كان ذكيا في اختياره لهذا الاسم الرمز الذي يجمع بين معنيين اثنين هما: المرأة(المقهورة من قبل الرجل، و العادات، و التقاليد، و المجتمع...)، و

الجزائر أو الأمة الجزائرية المضطهدة في العهد الاستعماري من قبل فرنسا، أو في عهدنا هذا من قبل المؤسسات و الحكومات و سياستها الجائرة، و كلاهما يبحث عن مخلّص و منقذ له مما فيه، لذلك استعان الكاتب برمز ثان هو (المهدي المنتظر) و الذي يجسد الحاكم العادل المنتظر.

دلالة الاسم/الرمز الديني" المهدي المنتظر" و تجسيده للواقع و التاريخ

تقوم "عملية الترميز على محتوى ذهاني(وردت هكذا)، تفقد اللغة فيه أنساقها الوظيفية العادية و تتحول وظيفتها إلى تداعيات مفككة تحمل في بنيتها مضامين رمزية، و تقوم أيضا على محتوى ثقافي يرتبط بالذاكرة الثقافية و الاجتماعية المختزنة."[24] هذه الذاكرة تعود بنا إلى" المهدي المنتظر" و مايجري الاعتقاد به على أنه يأتي في آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا، و أمنا، و سلاما بعدما ملئت ظلما و جورا. لكن الكاتب عبّر عن أيديولوجيته اتجاه هذا الرجل في افتتاحية الرواية قائلا:" أنا لا أؤمن بالمهدي المنتظر، هو مجرد خرافة رسمها خيال العامة المنهزمين تعلقا منهم بأمل ما، يشرق يوما ليهزم ظلماتهم. لكن حوبه تؤمن به و تنتظره بشوق كبير، و تظل تحكي عنه دون ملل أو كلل"[25].

يعبر هذا القول عن عدم إيمانه بالمهدي المنتظر، مؤكدا من جهة بأنه خرافة، و من جهة أخرى بأنه سني و ليس شيعي، على اعتبار أن من يؤمن بالمهدي المنتظر هم الشيعة أكثر من السنة، لكن تعبيره هذا لا ينحصر في مسألة الإيمان و الاعتقاد، بقدر ما يدل على حالة اليأس التي يعيشها، و فقدانه الأمل اتجاه الواقع المعيش الذي يفتقد للعدل و الاستقرار في شتى الميادين(الاجتماعية، السياسية، الإدارية، الاقتصادية...) و يسود فيه الظلم، و القهر، و الاستغلال...، كما أنه يستشرف المستقبل بأن يريد التأكيد على أنه لا يؤمن بقدوم حاكم عادل و نزيه، و إذا كان الشعب/القارئ ينتظر مجيئه، فهو يثبط من عزيمته و أمله، موحيا له أن لا داعي من انتظاره، لأنه لن يأتي أبدا، و إذا أتى فإنه سينجرف نحو مصلحته لا مصلحة الشعب.

و هذا التصريح المعلن يؤكد إخفاق أفق انتظار القارئ الذي كان يعتقد قبل أن يلج متن الرواية بأن الكاتب بتوظيفه لـ" المهدي المنتظر" على مستوى العنوان يعبر عن إيمانه به و بالتالي عن تمثله للوظيفة الأيديولوجية الثالثة للعنوان.

الملاحظ أن" الكاتب يبعد هذه الشخصية المشفرة من أن تتطابق مع نموذجها الديني الكبير"[26]محوّلا إياها من رمز ديني إلى رمز سياسي(تسييس الرمز الديني❖)، يعني به القائد السياسي الذي كانت تبحث عنه الجزائر في العهد الاستعماري(في الفترة الممتدة مابين الثلاثينيات و الأربعينيات، إذ كان الشعب يبحث عن قائد يدافع عن الوطن و حقوقه فكان ذلك القائد ممثلا في شخص" فرحات عباس" الذي قاد البلاد إلى مجزرة الثامن من ماي1945 بعد اقتراحه القيام بمظاهرة سلمية بدل المظاهرة المسلحة) ليأخذ بيدها إلى بر الأمان و يبث العدل و السلام و الأمن و الاستقرار...، كما يعني الرئيس أو الحاكم العادل الذي تبحث عنه الجزائر الآن أيضا ليرفع عنها الغبن. و هنا تكمن مهارته في اختياره لهذه الرموز الزاخرة بالمعاني و الأفكار.

بهذا يجد القارئ أن هذا العنوان لا يعيّن مضمون الرواية، لكن أحداث الرواية كلها تتمحور حوله، كما يمضي إلى أبعد من ذلك عندما يستقرأ الواقع الحاضر(من خلال التاريخ)، و لا يتوقف عند الماضي التاريخي فحسب.

خلاصة

عموما، يفصح عنوان "حوبه و رحلة البحث عن المهدي المنتظر" عن حالات من الحزن، و الكآبة، و التعب، و الشقاء،... إذ تستوقفنا كلمة "رحلة " بوزنها الثقيل على النفس، و بالأنين المنبعث منها موحية لنا بأن الأمر لم يتحقق بعد(البحث/المنتظر) و بأنه ميؤوس منه. و إذا كانت " الرحلة تعني الانتقال من مكان إلى مكان آخر، و من زمن إلى زمن آخر"[27]، فإن الرحلة هنا وهمية جاء توظيفها على سبيل المجاز، بحثا عن الحرية و العدل و الاستقرار و الأمن في الوطن(إن في العهد الاستعماري أو في وقتنا الحاضر- خصوصا-). و إن كانت الرحلة وهمية فإن البحث وهمي أيضا، لذلك قصد الكاتب إلى

السخرية "هذه السخرية التي يلجأ لها .. ليضع مسافة بينه و بين البحث الوهمي"[28] و كأنه يريد القول بأنه لا وجود لحاكم عادل في هذا الوجود، و لن يوجد، و لا داعي لانتظاره.

و من جهة أخرى، أعتقد أن هذا العنوان لا يؤدي وظيفة إغرائية فحسب، بل يؤدي وظيفة تحريضية❖ أيضا، لأنه ينبني على هاجس التغيير و الرغبة في الإصلاح و الإتيان بالأفضل و الأمثل- مهما كان الحال- ، لذلك يدعو- ربما- إلى الثورة و قلب المنظومة، و توظيفه للمهدي المنتظر يترجم رغبة الشعب الجزائري في التغيير و الإصلاح، تغيير الحاكم و أعضاء الحكومة الحاليين.

هكذا يبدو العنوان- بعد خوض غمار التحليل و التأويل- ذا صلة وطيدة بالمضمون، و بالتاريخ(و الواقع، و المجتمع، و السياسة) بالذات. إنه خلاصة العمل الأدبي و بؤرة الحكي و أساسه.

استنادا إلى قول"رولان بارت" بأن " الرمز ثابت وحدها المعاني يمكن أن تحوّل وعي المجتمع لهذه الرموز"[29] فإن عنوان "حوبة و رحلة البحث عن المهدي المنتظر"عنوان رمزي، يفتح علينا أبوابا كثيرة من التأويل لتعدد الدلالات فيه، و ارتباطه باحتمالات دلالية عدة.

هوامش الدراسة

---

[1] عبد الفتاح الحجمري: عتبات النص(البنية و الدلالة)، ط1، منشورات الرابطة، الدار البيضاء، 1996، ص17- 18

[2] عبد الحق بلعابد: عتبات(جيرار جينيت من النص إلى المناص)، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت – لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، تقديم سعيد يقطين، 2008، ص13

[3] سليمة عذراوي: الرواية و التاريخ(دراسة في العلاقات النصية، رواية العلامة لابن سالم حميش نموذجا)، رسالة ماجستير، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 2006، ص74

[4] عبد الحق بلعابد: عتبات(جيرار جينيت من النص إلى المناص)، ص 73- 74

❖ "حوبه و رحلة البحث عن المهدي المنتظر" هي رواية للكاتب الجزائري "عز الدين جلاوجي"، سبقتها عدة روايات كانت عناوينها كالآتي: سرادق الحلم و الفجيعة، الفراشات و الغيلان، راس المحنة1+1=0، الرماد الذي غسل الماء. و قد اطلعت عليها لكنها لم تكن في نفس المستوى من الرواية(محل الدراسة)، حيث بدا لي بأن الكاتب قد بذل فيها جهدا مضاعفا(جعلها ثرية شكلا و مضمونا) أكثر من الروايات السابقة الأمر الذي جعلني أحيطها بالاهتمام و الدراسة.

(5)عبد الحق بلعابد: عتبات (مرجع سابق)، ص85

(6)عبد الفتاح الحجمري: عتبات النص(مرجع سابق) ، ص17- 18

(7)ينظر: لوسيان غولدمان و آخرون: البنيوية التكوينية و النقد الأدبي، مراجعة ترجمة: محمد سبيلا، ط2، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت- لبنان،1986، ص116- 117

(8)عز الدين جلاوجي: حوبه و رحلة البحث عن المهدي المنتظر، ط1، دار الروائع للنشر و التوزيع، سطيف، الجزائر، 2011 ، ص12

(9)المصدر فسه، ص131

(10)الرواية، ص283

(11)الرواية، ص131

(12)الرواية، ص12

(13)عبد الرحمن غانمي: الخطاب الروائي العربي(قراءة سوسيو- لسانية)، الجزء الأول، ط1، سلسلة كتابات نقدية تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2013، ص243

(14) الرواية، ص11

(15)المصدر نفسه، ص132

(16) الرواية، ص11- 12

(17)الرواية، ص13

(18)الرواية، ص11

❖أجريت هذا الحوار مع الكاتب"عز الدين جلاوجي" بتاريخ 28أفريل2013، على الساعة 10:00 بقاعة الأساتذة في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة منتوري بقسنطينة، و قد وجهت له حينها بعض الأسئلة بخصوص روايته هذه.

❖عدد صفحات الرواية هو556 صفحة، أي ما يعادل مجلدا، و الرواية تستغرق وقتا طويلا للقراءة و التحليل.

[19]الرواية ، ص 131

❖قبل أن ألتقي بالكاتب "عز الدين جلاوجي" كنت أعتقد بأن حوبه شخصية فعلية موجودة في الواقع، و أنها بالفعل قد حكت له قصة الرواية على شاكلة ما يفعله الأجداد، و المجاهدون، و المناضلون الذي يقصون على كل مهتم بالتاريخ ما عايشوه في الماضي، و ينقلون له شهاداتهم الحية عن ذلك الماضي، لكن بعد الحديث معه عنها نفى تماما ما كنت أعتقده، و قال لي بأنها مجرد شخصية متخيلة، حينها تأكد لي بأن علاقته بها علاقة مصطنعة فنيا(وهمية)، يريد باعتماده عنصر الإيهام أن يوهم القارئ بوجودها الفعلي، و بأنه لا دخل له فيما يرويه و أنه مجرد ناقل لما حكي له.

[20]ينظر: رولان بارت و آخرون: شعرية المسرود، ترجمة: عدنان محمود محمد، (د/ط) ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2010، ص37

[21]سمر روحي الفيصل: الرواية العربية البناء و الرؤيا(مقاربات نقدية)، من منشورات اتحاد الكتاب العرب،
دمشق، 2003، ص 47

[22]صلاح فضل: شفرات النص(دراسة سيميولوجية في شعرية القص و القصيد)، ط2، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، 1995، ص180

❖وردت كلمة "حوبه" هكذا دون أن يضع كاتبها نقطتين فوق التاء، و كما يبدو أن الأمر مقصود و يرجع- ربما- إلى سببين هما: السبب الأول هو كتابة الكلمة باتباع النطق، و السبب الثاني هو محاكاة الكاتب لكلم القرآن الكريم و النسج على منواله نذكر مثلا كلمة "حسابيه"، في الآية26 من سورة الحاقة "و لم أدر ما حسابيه"، كذلك، كلمة "ماليه" في الآية 27، و 28 من نفس السورة" ما أغنى عني ماليه"، "هلك عني سلطانيه"، و ينبغي الإشارة إلى أن الكاتب يبدو متأثرا تأثرا بالغا بلغة القرآن الكريم فقد وظف الكثير من كلماته في ثنايا النص الروائي.

[23]القرآن الكريم، سورة النساء، الآية2

[24]عبد الهادي عبد الرحمن: لعبة الترميز(دراسات في الرموز و اللغة و الأسطورة)، ط1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت- لبنان، 2008 ، ص32

[25]عز الدين جلاوجي: حوبه و رحلة البحث عن المهدي المنتظر، ص 11

[26]صلاح فضل: شفرات النص(مرجع سابق)، ص180

❖ تسييس الرمز الديني: مقولة خاصة بالأستاذ صلاح فضل و قد أخذتها من الكتاب الموجود أعلاه.

[27]سمر روحي الفيصل: الرواية العربية البناء و الرؤيا(مرجع سابق)، ص153- 154

[28]بيير زيما: النقد الاجتماعي(نحو علم اجتماع للنص الأدبي) ، ترجمة: عايدة لطفي، مراجعة: أمينة رشيد و آخرون، ط1، دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع، القاهرة، باريس، 1991، ص147

❖هنا يجد القارئ بأن العنوان يؤدي الوظيفة التحريضية بمعنيين، المعنى الأول ينحصر في تحفيزه على القراءة(أي الإغراء)، و المعنى الثاني ينحصر في الدعوة إلى التغيير و التشجيع على الثورة و قلب النظام.

[29]رولان بارت: النقد البنيوي للحكاية، ترجمة أنطوان أبو زيد، ط1، منشورات عويدات، بيروت، باريس، 1988، ص61